المحاضرة الثالثة:

أركان علم الأصوات:

تمرُّ عمليَّة الكلام بخمسة أحداث متتالية مترابطة، يقود بعضها إلى بعض، حتَّى تتم عملية التواصل بين المتكلم والسامع، ويمكن أن نوجز تلك الأحداث مرتبة على النحو الآتي:

١- الأحداث النفسيَّة والعمليات العقليَّة وهي التي تحدث في ذهن المتكلم قبل الكلام، أو أثناءه.

٢- عملية إصدار الكلام وتتمثل هذه العملية في أصوات تنتج عن جهاز النطق.

٣- الموجات والذبذبات الصوتية الواقعة في الوسط الناقل وهو الهواء، والتي تنتقل عبره من فم المتكلِّم إلى أذن السامع.

٤- العمليات العضوية التي يخضع لها الجهاز السمعي لدى السامع.

٥- الأحداث النفسية والعمليات التي تجري في ذهن السامع عند سماعه للكلام واستقباله للموجات والذبذبات الصوتية المنقولة إليه بوساطة الهواء.

ويُفترض أن يقوم عالم الأصوات بالنَّظر في الأحداث الخمسة المذكورة، لكي يحيط بأركان موضوعه، غير أن معظم الدارسين من علماء الأصوات رأوا إهمال الجانبين: الأول والخامس وعدم التعرُّض لهما بالدرس، وذلك لأن الجانبين المشار إليهما جانبان نفسيّان عقليّان، وموضوع عالم اللغة درس الأحداث اللغوية المنطوقة بالفعل، ولأن هذه العمليات النفسية العقليّة معقدَّة وغامضة.

يتَّضح ممّا سبق أن أصوات الكلام لها ثلاثة أركان متَّصلة لا يمكن تصور أحدها دون الآخر، وهذه الجوانب هي:

١- جانب إصدار الأصوات، أو الجانب النُّطقيّ، ويشار إليه بالجانب الفسيولوجيّ، أو العضويّ للأصوات.

٢- جانب الانتقال، أو الانتشار في الهواء، أو الجانب الأكوستيكيّ، أو الفيزيائي.

٣- جانب استقبال الصوت، أو الجانب السمعي، ويتمثَّل في الذبذبات التي تؤثّر على طبلة أذن السامع.

أهمية علم الأصوات ووظيفته:

إن دراسة أي لغة من اللغات محال أن تتم من دون معرفة أصوات هذه اللغة أو تلك؛ لأن حقيقة اللغة تتمثل في كونها رموزا صوتية، تأتلف فيما بينها لتشكل الكلمات التي تتكون منها العبارات والجمل، فالأصوات هي المادة الخام التي تنتظم منها اللغات عموما، ومن هنا فإن أي دراسة تحليلية للغات ترتكز في الأساس على معرفة ودراية بمكوناتها الأساسية، ولن يتمكن المتعلم للغة ما من تعلمها ما لم يحط علما بطبيعة الأصوات في هذه اللغة.

يعد علم الأصوات هو الحجر الأساس لأية دراسة لغوية، حتى دعا بعضهم إلى تقديم الدراسة الصوتية على الدراسة النحوية والصرفية، وتوظيف الدراسات الصوتية في خدمة الدراسات النحوية والصرفية لأي لغة من اللغات، لكي يفهم الباحث أسرار تلك اللغة وخصائصها وظواهرها، ومن ثمَّ تكون دراسته لتلك اللغة دراسة علمية صحيحة، لا تقوم على الافتراض.

وتنبع أهمية هذا العلم من أنه يتيح للدارس أن يقف على طبائع الأصوات اللغوية وخصائصها، حينما تتألف فيما بينها مشكلة الكلمات، ويسهم إسهاما كبيرا في تفهمنا لطبيعة اللغة الإنسانية، والتي تتميز عن تلك الأصوات التواصلية لبعض المخلوقات من الحيوانات، فالقصد في تأليف اللغة يتمثل في جوانبها الصوتية، ومن الطبيعي أن لكل لغة إنسانية نظاما صوتيا خاصا بها.

ومن الأمور المهمة أن علم الأصوات يبين لنا أنَّ اللغة ليست كالقوانين الطبيعية الثابتة التي لا تتغير، وإنما هي تخضع للقواعد المطردة التي تتحكم فيها، ويبين لنا هذا العلم كذلك أن هناك صورا من الاستعمال اللغوي تخالف القياس العام، أو القواعد المألوفة التي استقرت عند دارسي هذه اللغة أو تلك.

ومثال على أهمية هذا العلم في اللغة العربية مثلا أنه يمكن الباحث العلمي في مجال الأصوات أن يجيب عن كثير من الأسئلة التي تتصل بنحو اللغة العربية الفصحى وصرفها، أو تلك التي تتعلق باللهجات العربية القديمة أو القراءات القرآنية، زد على ذلك أنَّ الدراسات الدلالية قد لا تكون مثمرة، ما لم تركز على دراسة الصور الصوتية و التنغيمية.